

آيَةُ ((لَمْ يَكُن)) دِرَاسَةٌ

تَرْكِيبِيَّةٌ

إنّ السبب في بحثنا لهذه الآية حصرا دون بقية آيات السورة وهي سورة البينة هو لما لهذه الآية من أهمية بالغة في الأدوات والأفعال والصيغ التركيبية المستعملة فيها, فهذه الآية وصفت دون غيرها من الآيات بأنّها من أصعب ما في القرآن نظما وتفسيرا, إذ وقع فيها كلام كثير وتفسير كثيرة, وترتبت على تفاسيرها أحكام شرعية وعلل نحوية وقواعد بلاغية في أصل نظم الآية التركيبي, وراح كلّ فريق يدافع عمّا يقوله بالحجج والبراهين العقلية والنقلية بأنّ ما ذهب إليه هو الصائب, ولهذه الأسباب مجتمعة أفردناها في بحث مختص بها لوحدتها, عسى أن نبلغ منها مبلغ المتقصي الباحث عن الصواب فيجده .

آية ((لم يكن)) دراسة تركيبية

لم يكن الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ/1
سورة البينة

إنَّ المتأمل لهذه الآية من الناحية الإعرابية يجد أنَّ ((لم: حرف نفي
وجزم وقلب, يكن: فعل مضارع ناقص مجزوم وعلامة جزمه السكون حرّك
آخره لالتقاء الساكنين, الذين: اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع اسم
يكن, كفروا: فعل ماض مبني على الضم لاتصاله بواو الجماعة وواو الجماعة
ضمير متصل مبني في محل رفع فاعل؛ وجملة كفروا صلة الموصول لا محل
لها من الأعراب, من: حرف جر, أهل: اسم مجرور وعلامة جره الكسرة وهو
مضاف, الكتاب: مضاف إليه مجرور وعلامة جره الكسرة, والمشركين: الواو:
حرف عطف, المشركين: اسم معطوف مجرور وعلامة جره الياء لأنه جمع
مذكر سالم, منفكين: خبر يكن منصوب وعلامة نصبه الياء لأنه جمع مذكر سالم,
حتى: حرف جرّ وغاية, تأتيهم: فعل مضارع منصوب بـ(أنّ) مضمرة وجوبا
وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة في آخره؛ والهاء ضمير متصل مبني في محل
نصب مفعول به والميم للجمع, البينة: فاعل مرفوع وعلامة رفعه الضمة)).

المبحث الأول: الفعل الناقص (كان):

بدأ سبحانه وتعالى الآية الكريمة بأداة نفي وجزم وقلب وهو الأداة (لم) وفائدة هذا الحرف في الدخول على الجملة الفعلية المضارعة فينفيها ويقلب زمنها إلى الزمن الماضي المطلق, ويدلّ على ذلك قراءة أبي بن كعب ((ما كان الذين كفروا)) , أما الفعل المضارع " يكن " ف"كان" عند سيبويه فعل يدخل على الجمل الإسمية , فيرفع الأول اسما له وينصب الثاني خيرا له , وتابعه على ذلك

أغلب النحاة , ويفيد في دخوله علي الحملة الدلالة على الزمن الماضي , وعند الفراء أنّ "كان" إنما خلقت للماضي , وهي على أنواع: الأول: أن يكون لها اسم وخبر , والثاني أن يكون بمعنى "خلق أو وقع" فتكتفي بالاسم نحو "كان الأمر" أي وقع , والثالث أن تكون زائدة للتوكيد نحو "زيد كان منطلق" , وقيل هي أربعة أقسام الثلاثة السابقة ورابعها التي فيها ضمير الشأن نحو "كان زيد قائم" أي كان الأمر أو الشأن زيد قائم , فأما التي لها اسم وخبر فهي "الناقصة" وهذه دون غيرها ما يهمننا في سياق عرض هذه الآية لأنّ لها اسما وخبرا , وسميت بالناقصة لأنها تدل على الزمان فقط دون الحدث وبهذا خالفت الفعل , فهي دالة على الزمن دون الحدث وتدل على زمن حدوث الخبر , وذهب الزجاجي أنّ هذا غير صحيح فهي تدل على الحدث إلا أنّ العرب أثرت استعمال الفروع على الأصول وهذا بيّن في كلامهم , ومما يدل على ذلك مجيء الأمر واسم الفاعل منها , فلو لم تكن تدلّ على الحدث لما أمكن المجيء به , لأنّ الأمر وبناء اسم الفاعل لا يتصوران بالزمان ,

وقد وافقه على ذلك الصفار وأبو حيان , وذهب الأردبيلي أنها ناقصة لأنها تدل على ثبوت خبرها لاسمها في الزمن الماضي وهي إمّا أن تكون دائمة أي مستمرة نحو "كان الله قادرا" وإمّا أن تكون منقطعة نحو "كان الفقير ذا مال" , وهي أمّ بابها , لكثرة أدوارها وتشعب مواضعها , وظاهر كلام ابن الحاجب أنّها إنّما سميت بالناقصة لأنها وضعت لتقرير الفاعل على صفة أي: تثبيته عليها , ولأنّها لا تتم بالمرفوع كلما بل بالمرفوع والمنصوب معا بخلاف التامة التي يتم كلامها بالمرفوع دون المنصوب , أمّا الأزهري فيرى أنّ "كان" التامة هي التي تدلّ على الحدث والزمان وليس اكتفاؤها بالمرفوع, والناقصة كونها سلبت الدلالة على الحدث وتجردها للدلالة على الزمن وليس كونها لم تكتف بمرفوعها , وفائدة "كان" بدخولها على الجملة هي التوكيد , أمّا من حيث الدلالة: فنحو جملة "كان زيد قائما" يجوز أن يكون الفعل قد وقع وانتهى في الزمن الماضي دون وقت الإخبار, ويجوز أن يكون مستمرا إلى زمن حكاية الجملة , ومنه قوله تعالى {وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [النساء: 96]

وجزم ابن معطي في ألفيته بأنّ "كان" لاتفيد الانقطاع بل تقتضي
الدوام والاستمرار فقال :

وإن أتت كان بمعنى وقعا فكان للماضي الذي ما انقطعا

وقيل تدل على الماضي والاستقبال , وأنّ التي ترفع الاسم
وتنصب الخبر على قسمين: الأول أن تكون بمعنى "صار" ,
والثاني: أن تكون لمجرد الدلالة على الزمن الماضي نحو "كان زيدٌ
قائماً" فأفادت الإخبار بوقوع الخبر في الزمن الماضي, واختلف فيها
أتقتضي الانقطاع أم لا؟ فالصحيح أنّها تقتضي الانقطاع فـ"قيام زيد"
كان فيما مضى وهو الآن ليس بقائم, وذهب بعضهم أنّها لا تفيد
الانقطاع بدليل قوله تعالى {وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [النساء: 96]،
أي كان وهو الآن كذلك, فجواب هذا أنها قد يتصور فيها الانقطاع
لأنّ المراد به قد يكون مجرد الإخبار بأنّ هذه الصفة كانت له فيما

مضى ولم يتعرّض إلى خلاف ذلك , وأنها تدل على حصول حدث مطلق تقييده في الخبر , والخبر يدل على حدث معيّن واقع في زمان مطلق تقييده في "كان" , لكن دلالة "كان" على الحدث المطلق وضعية , ودلالة الخبر على الزمان المطلق عقلية , ولها معنيان : الأول : ثبوت خبرها مقرونا بالزمان الذي تدل عليه صيغة الفعل الناقص "ماض وحال واستقبال" , فهي للماضي وتكون للحال والاستقبال , وذهب بعضهم أنّها تدل على استمرار مضمون الخبر في جميع الزمن الماضي نحو قوله {وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا} [النساء: 134] ، وظاهر كلامه أنّ زمن كان يحدد بقريظة توجب اتصال زمن "كان" أو انقطاعه فالمتصل نحو قوله تعالى {وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [النساء: 96] ، / والمنقطع نحو قوله تعالى {وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةٌ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ} [النمل: 48] ونحو "كان زيد نائما" , والثاني من معانيها هو "صار" . كما وتكون زائدة فلا تفيد سوى التوكيد ومجردة عن الحدث المطلق ,

فظاهر الكلام عن طريق ما عرضناه لآراء علماء اللغة والنحو أنّهم
اختلفوا في تسميتها فقالوا أفعال ناقصة وقالوا أفعال عبارة, كما
اختلفوا في معنى النقص فقسم يرجح نقصها بعدم اكتفائها بالمرفوع
وأنها لا تفيد شيئاً دون المنصوب, وقسم يرى نقصها في عدم دلالتها
على الحدث واكتفائها بالدلالة على الزمن, كما اختلفوا في دلالتها
على الزمن أهي منقطعة أم متصلة, فقسم رجح انقطاعها وقسم رجح
اتصالها وقسم ثالث يرى أنّ "كان" تدل على الزمن الماضي بقرينة
نحو " كان الفقير غنياً" و "كان لي مالٌ", فإذا ما انتفت القرينة لم
تدل على الزمن الماضي فحسب وإنما على الماضي والمستقبل على
أرجح الأقوال نحو قوله تعالى {وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [الأحزاب:
5] / وهي بذلك تفيد الدوام والاستمرار, وعليه فإنّ الاختلاف في
مجيء صيغتها لا يغير من زمن وقوع الحدث في شيء, فدلالتها
دلالة زمنية مستمرة سواء كانت بلفظ الماضي أم جاءت بلفظ
المضارع,

أما قوله تعالى {مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ} [البينة: 1] "من" من حروف الجر تأتي في الجمل لمعان عدة يُقصد من ورائها أغراض عدة تؤديها في الجمل الداخلة عليها، فمن معانيها "التبويض كقوله تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ} [البقرة: 8]، وابتداء الغاية كقوله {مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى} [الإسراء: 1]، وبيان الجنس كقوله تعالى {فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ} [الحج: 30]، والتعليل كقوله تعالى {مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ} [المائدة: 32]، فهذه هي معاني "من" في العربية فضلا عن غيرها من المعاني لم نذكرها اختصارا، فاختلف المفسرون في تفسير معنى "من" في هذه الآية فبعضهم قال هي للتبويض وبعض آخر قال هي المبينة للجنس، وذلك بسبب مجيء الواو - وهي في قوله تعالى {وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ} [البينة: 1] -

وعلى هذا التأويل يُزال الالتباس ويُقطع الشكّ باليقين فالواو في هذه الآية محتملة لمعنى "مع" وعليه يكون قوله تعالى ((المشركين)) مفعول معه منصوب بالياء لأنّه جمع مذكر سالم، لا معطوفا على قوله ((أهل الكتاب)).

أمّا قوله تعالى {مُنْفَكِّينَ} [البينة: 1] فهو "خبر يكن" بإجماع، وهي التامة التي لا خبر لها لأنّها بمعنى "متفرقين أو مفارقين أو منتهين" عن كفرهم، فهي من انفكك الشبيئين أحدهما عن الآخر، ويدل على ذلك قوله تعالى من السورة نفسها {وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ}

المبحث الثاني: الأداة (حتى)

إنّ قوله تعالى : (حتى تاتيهم البينة) فيه خلاف في عمل " حتى " بين علماء العربية, فيرى سيبويه أنّ ما انتصب في باب "حتى" من الأفعال إنّما انتصب بـ" أنّ " مضمرة وجوبا لا يمكن لها أن تظهر, وذلك لأنك إنّ لم تضر " أنّ " كان الكلام محالا, وذلك لأنّ " حتى " عملها الجرّ في الأسماء وما كان عاملا في الأسماء لايجوز له العمل في الأفعال كذلك, وهي ليست من الحروف التي تضاف إلى الأفعال , وهذا من قبيل أنّ الذي يعمل شيئا واحدا أقوى وأدلّ من الذي يعمل عملين, وتنصب الفعل الذي يليها إذا ما كانت غاية؛ كقولك " سرت حتى أدخلها " أي كأنك قلت " سرت إلى أنّ أدخلها "

ويرى ابن السراج أنّ معنى " حتى " هو منتهى لابتداء الغاية,
بمنزلة " إلى " وهي على نوعين الأول: أن يكون ما بعدها جزءا
مما قبلها وينتهي الأمر به, والثاني: أن ينتهي الأمر عنده,
ولكنّها قد تكون عاطفة وتليها الأفعال , وأنّ الفعل الذي يليها إذا
كان غاية نُصب .

ويرى الفارسي أنّ الفعل المنصوب بعد " حتى "
منصوب بإضمار " أنّ "

وذهب ابن الشجري إلى أنّ إضمار " أن " بعد " حتى " حينما يكون لها معنيان هما: الأول معنى " كي " إذا كان ما قبلها سببا لما بعدها كقولك " أطع الله حتى يدخلك الجنة " أي " كي يدخلك الجنة " لأنّ دخول الجنة مسبب عن الطاعة, والثاني بمعنى " إلى أن " وذلك إذا كان ما بعدها غاية لما قبلها كقولك " لأنتظرنك حتى تغيب الشمس " أي " إلى أن تغيب " فغياب الشمس غاية لانتظاره له , وإلى هذا ذهب ابن مالك وابن هشام أمّا العكبري فيرى أنّ " حتى " إذا كانت غاية أو كان ما قبلها سببا لما بعدها أضمرت " أن " وتكون هي الناصبة للفعل الذي يليها لا أن تكون هي الناصبة خلافا للكوفيين .

فهذا ما ذهب إليه النحاة في باب " حتى " إذا ما وليها الفعل
فيكون الناصب للفعل هو " أن " مضمرة وجوبا بعد " حتى "
فتجعل مما يليها من الأفعال في تقدير المصدر المنسب من "
أن " المضمرة الناصبة للفعل والفعل في محل جرّ بـ " حتى " ,
ونرى أنّ ما ذهب إليه البصريون فيه شيء من المبالغة في تقدير
الأشياء , صحيح أنّ ما له عمل مختص به أفضل من أن يكون
غير مختص وبالتالي الحكم عليه بعدم العمل , ولكن الموضوع
موضوع متعلق بكلام البشر مطلقا , وعمّا يريد المتكلم الإفصاح
به , وطالما أنّ المتكلم لا يخضع لقوانين معينة في الكلام فإنّ من
حقّ التعبير عمّا يريد بأيّ صيغة كانت , فيرفع وينصب ويجر
ويجزم بما يريد هو من تعبير في الكلام , وهذه هي حالة العرب
المتحدثين باللغة العربية قبل مجيء من يضع القواعد الصارمة
في حدود اللغة واستعمالها

هذا من جهة التركيب النحوي في الآية، أمّا من جهة تفسير الآية لغويا فيكون تفسيرها: هو اخبار من الله سبحانه وتعالى بأنّ الذين كفروا من أهل الكتاب " اليهود والنصارى " وذلك ليس من المعقول أن يكون جميعهم كفارا، وإنّ كان المؤمنون منهم قلة، مع المشركين عامة سواء كانوا من عبدة الأوثان كالعرب أو من عبدة الشمس والقمر والنجم والبقر، لم يكونوا منتهين عمّا هم عليه من الكفر والشرك ما لم يرسل الله سبحانه وتعالى إليهم حجة بالغة واضحة يتميز بها الحق عن الباطل، وهي البينة والمقصود بها هو القرآن الكريم والرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) الذي بيّن لهم كفرهم وشركهم بالله عز وجلّ ، وربما يتبادر إلى الذهن تناقضا كيف أنّهم لم يكونوا منتهين عمّا هم عليه حتى تأتيهم البينة وهذا يقتضي إذا ما جاءت البينة آمنوا جميعهم، هذا في الآية الأولى، وبين قوله تعالى من السورة نفسها { وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ } [البينة: 4] أي أنّهم ما تفرقوا إلا بعد مجيء البينة وهي القرآن ومحمد (صلى الله عليه وسلم) فيردّ على ذلك بأنّ الآية الأولى هي حكاية عن الكفار والمشركين أمّا الآية الأخرى فهي واقع حالهم بعد نزول القرآن وبعث محمد (صلى الله عليه وسلم) .

النتائج

فقد تناولنا في هذا البحث آية ((لم يكن)) من سورة البينة، إذ تتبعنا معنى هذه الآية لغة وتفسيرا، كما قمنا ببيان آراء العلماء في اللغة والتفسير فيما ورد في الآية من أحكام تتعلق بالأصل التركيبي للآية، وبعد العرض والدراسة ومناقشة الآراء توصل البحث إلى عدة نتائج كالآتي :

- إنَّ للتركيب اللغوي علاقة متلازمة مع الدلالة، فلا يمكن الفصل في الدراسة فيما بين التركيب ومدلوله، كما أنَّ للسياق الذي ورد فيه التركيب علاقة مهمة، تستوضح عن طريقه الغاية من التركيب الذي جاء في سياق ما ليعبر عن حالة ما أرادها المتكلم، وذلك لأنَّ التركيب لا يمكن عزله عن السياق الذي ورد فيه، وبذلك تتكون مجموعة من المفاهيم التي لا بدَّ للدارس من ايضاحها، ومفادها إنَّ دراسة أيّ تركيب تعتمد على جوهرين هامين هما النص الذي ورد فيه، والظروف المحيطة بذلك النص الذي ورد فيه التركيب .

• إنَّ دراسة التركيب تفيد ربط القاعدة النحوية بالمعنى التفسيري للآية، وبعد ذلك يتم الخروج بالنص بفهم دقيق تستطيع عن طريقه استنباط الأحكام الفقهية، ففهم التركيب وتحليله إعرابيا يؤدي إلى بيان وجوه الإعجاز البلاغي والتركيبى الموجود في القرآن الكريم، وعليه فإنَّ المعاني التفسيرية هي عبارة عن تآلف مجموعة من الألفاظ، وأنَّ الذي يُحدث هذه الألفة والانسجام والترابط بين الألفاظ لأداء المعاني المراد إيصالها إلى ذهن المتلقي هو علم النحو، الذي يعدُّ الرابط والموجه لمعاني التراكيب وفق القواعد والأحكام .

• إنَّ الفعل " كان " لا يدلّ بصيغته على الزمن الماضي إلا بقرينة فإنَّ انتفت تلك القرينة لأي سبب كان دلّت على جميع الأزمنة الماضي والحاضر والمستقبل .

• إنَّ أداة الجر " حتّى " قد تأتي ناصبة لما بعدها من الأفعال ولا حاجة في تقدير متكلف وهو تقدير (أن) على أنّها هي من أجرى النصب على الفعل الذي بعدها، كما أنّ الحرف نفسه سيتغير مع هذا التقدير فيصبح " إلى " وهو " حتى " .